

دور نشاط التعبير في تخصيب خيال الطفل وتنمية قدراته وتنشيط مواهبه.

The role of expression activity in enriching the child's imagination, developing his abilities and activating his talents

د: عبد الرحمن بن زورة

جامعة عبد الحميد بن باديس. مستغانم

abderrahmane.benzoura@univ-mosta.dz

تاريخ الإرسال: 2020/11/23 - تاريخ القبول: 2020/02/27 - تاريخ النشر: 2021/03/29

الملخص:

لا بدّ من الاعتراف - منذ البدء - بأنّ الحديث عن المخيال صعب للغاية، ما لم يحدّد صاحبه الزاوية المراد محاصرتها، وذلك لما يوحي به المصطلح من معاني و مفاهيم تنفتح عن الأدب و الفكر والفلسفة والدين والثقافة والمعتقدات. ولذلك نرى أنّه من اللائق التوقف عند بعض المعاني والمفاهيم المتعلقة بهذه الكلمة (المخيال) وبعض مشتقاتها.

والخيال آلية من آليات كثيرة معقدة مثله مثل المخيال، بم يفرضه من قدرة على التّخيل على الحكي وعلى إنتاج الرّموز، ومن ثم فالمخيال هو أفق التعبير الحرّ لجماعة ما، وهو ملاذ الإنسان الذي يبحث عن معنى بواسطة اللّغة لأنّها سكن المخيال، وحين يوصّف المخيال بأنّه فضاء تجتمع فيه ترصّبات من التّراث وتنظم فيه عناصر بانية للمعنى مشكلة لمسألة الهوية، فإنّ المخيال - على هذا الأساس - فضاء رمزي تتفاعل فيه الصّور والرّموز والأساطير والأنماط العليا التي تتجسّد في أشكال التّعابير التّراثية عموما وفي الثّقافة الشّعبيّة على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: نشاط التعبير، تخصيب، تنمية، الطّفل، المخيال، القدرات، المواهب.

Abstract.

It must be recognized – from the beginning – that talking about imagination is extremely difficult, unless its owner specifies the angle to be surrounded, due to the meanings and concepts that the term implies that open up about literature, thought, philosophy, religion, culture and beliefs. Therefore, we think that it is appropriate to dwell on some of the meanings and concepts related to this word (imagination) and some of its derivatives.

Imagination is a mechanism of many complex mechanisms, just like the imagination, with its ability to imagine, to tell and to produce symbols, and then the imagination is the horizon of free expression for a group, and it is the refuge of the person who searches for meaning through language because it is the residence of the imagination, and when the imagination is described as a space In it complexes of heritage are combined and organized in it constructive elements of meaning that form the

issue of identity. Imagination - on this basis the A symbolic space in which images, symbols, myths and higher patterns interact in the forms of heritage expressions in general and in popular culture in particular.

Keywords: expression activity, fertilization, development, child, imagination, abilities, talents.

مقدمة:

قبل ولوج موضوع المخيال وما له من انعكاس إيجابي، وتأثير جمالي على عالم الطفل وأدبه المحكي، يجدر بنا البدء من الحقل اللغوي تبسيطا للمفاهيم، ثم - في المقام الثاني - الانتقال إلى التعامل مع جملة من المحاولات الإبداعية، لبيان تفاعلات صغار المبدعين مع نشاط التعبير ونتائج ذلك. يقول "ألبرت أينشتاين" "الخيال أهم من المعرفة، فهو رؤية مسبقة لجاذبية الحياة المستقبلية". ويرى الفيلسوف الفرنسي ألان (Alain) إميل شارتي «أنّ المخيال يشكّل الطّفولة الأولى للوعي البشري» (1)

1- مصطلح المخيال: المشتقات والمفاهيم.(قراءة في المصطلحات).

1.1 مفهوم الخيال في اللغة. Imagination :

ينصرف مفهوم الخيال إلى الصّورة التي يراها النّائم في الحلم، أو الصّورة المتخيّلة في اليقظة، وقد جاء في معجم "لسان العرب" (لإبن منظور) في مادّة خيل ما يلي: "خال الشيء، يخال، خيلاً وخيلاً (2) وخيلاً وخيلاً ومخالّة ومخيّلة فتخيّل له وخیلولة، ظنه" "وتخيّل الشيء تشبهه، وتخيّل له أن كذا، أي تشبّهه وتخيّل، ويقال تخيّلته لي، كما تقول تصوّرتَه فتصوّر وبينته فتبين، وتحققته فتحقق و الخيال و الخيالة ما تشابه (3) وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في قوله تعالى: قالوا يا موسى إمّا أن تلقى و إمّا أن نكون أوّل من ألقى قال بل القوا فإذا حبالهم وعصيم يُخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى.(آية 65 سورة طه) وقد عني اللفظ مفهوم التّوهّم بحكم فعل التّأثير السّحري.

2.1 الخيال اصطلاحاً:

يشكّل الخيال أحد الأسس البانية في الخطاب الأدبي، ومعيّار شعريته، ومؤشّر الإبداع فيه، فهو الملكة الذّهنية الخلاقة وهو «القدرة العقلية على التّجريب واستكشاف الجديد، وعلى البناء و التّشكيل و المحاكاة والرّبط باستخدام صور ذهنية تحاكي الطّبيعة، وإن لم تعبر عن شيء موجود في الواقع، وهو القوّة التي تحرّك المخيّلَة والإبداع والرّؤى والفكر، وتؤسّس من ثم للفرضيات» (4)

2-التّخيّل:

التّخيّل بصيغة التّفعل يؤوّل إلى عمل المبدع حين يقدم على إنتاج صوره الشعريّة، فهو «القوّة الإدراكية الفاعلة لعملية المزج بين الأشياء وإدراك العلاقات الظّاهرة والكامنة فيها (5) فالتّخيّل مهارة معرفية وقدرة إبداعية تترجم نشاط الكاتب وتمكّنه من عملية دمج الأشياء فيما بينها لاستنباط العلاقات الموجودة فيها. ولذلك يُتدأول كثيرا لدى الشعراء والحكماء فيكشف عن فطنة وذكاء فهو « إدراك الحسن المشترك

للصّور... ويعرف أيضاً بحركة النّفس في المحسوسات بواسطة المتصرف... والتّخيل عند الشّعراء هو أن يتخيّل الشّاعر شيئاً في ذهنه بسبب ارتباط بعض أوصاف ذلك الشّيء، ويقال أيضاً لهذا الأمر تصوّراً» (6)

3- الخيال و الأدب:

لا يستكمل الأدب شروط ماهيته من غير وجود الخيال فيه، إذ إنّ الخيال عنصر بالغ الأهمية في إمداد الأدب بحرارة فاعلة فهو على حدّ وصف ابن عربي «طاقة مبدعة من شأنها أن تجابه بلادة الأشياء وبلاقتها، وافتقارها إلى التّوسيع، وذلك بفضل قدرته على بثّ الدّفء في النّفس والكائنات العيانية في آن واحد... الخيال لا يكون فاسداً قط ... ولا ينسب إليه الخطأ» (7)

4- تعريف التّخيل :

1.4- التّخيل الرّوماني:

للتّخيل أنواع كثيرة ذكرها الدّارسون (8)، ويهمّنا في هذه الصّفحة الإشارة إلى بعضها كالّتخيل السّردى الذي سنذكره بعد حين. والتّخيل الرّوماني بوصفه سبيلاً « للإنتاج السّحري للصّورة، ولكلّ فعل خلاف هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مفهوم الصّورة كتجسيد سحري للفكر وإرادة الذات » (9) وسبيل ذلك أن للخيال قدرة سحرية خلّاقة فهو يلج العالم الملموس وينتج الفنّ بأشكال وألوان، لذلك فهو عند الرّومانسيين جوهر الإبداع الذي يتمكّنون باسطته أحياناً من رؤية أشياء غير موجودة في الواقع، ولهذا عدّوه « القدرة على تحديد الإحساس قبلياً» (10) فالأديب الرّوماني يملك إلهاماً تخيلياً يتعرّف به على الأشياء مسبقاً.

2.4- التّخيل السّردى:

يعدّ هذا النّوع من العمليات التّخيلية ضرباً يحقّق عملية الإبداع و الخلق والابتكار، كما يعلي شأن المتلقي ويبرز دوره في تذوّق المادة الجمالية فهو « من الأنظمة الدّالة التي تعبّر اللّسان إلى أنساق أخرى، تحتويها وتتقاطع معها بواسطة المتخيل الذي نجده يعطي للرّواية أحياناً خصوصية تعرف بها ويتعالى عنها أحياناً، ليكون وسيلة لإثارة أشياء غير موجودة بواسطة اللّغة، أو محاكاة أشياء موجودة أو إثارة نوع من الإيهامات أو التمثيلات التي تتوجه إلى أشياء و تربطها باللحظة التي تمثّلها فيها الذات » (11) ولذلك يفضل النّقاد استخدام هذا المصطلح في عالم الرّواية التّاريخية.

5- المتخيّل:

يمكن اعتبار المتخيّل المادة الأساسيّة لإبداع للمبدع، على نحو يجعل الصّور المنطبعة في ذهن المبدع مستمرة عن طريق الحلم البناء. وللمتخيّل علاقة متينة بالخيال ما دام يشتغل ضمنه ويترجم المعارف والمعاني والأفكار والتّصوّرات ويحوّلها إلى وقائع فنيّة وماديّة، لذلك يعدّ حسين خمري «المتخيّل بأنّه بناء ذهني، أي أنّه إنتاج فكري بالدرّجة الأولى، أي ليس إنتاجاً مادياً» (12) بقدر ما هو مجموع إبداعات الخيال الإنساني. واستناداً إلى سبق فإنّ الخيال ملكة ذهنية يحظي بها الإنسان، وتمنحه القدرة على إعادة تشكيل عناصر الواقع،

وصهرها في مشاهد جديدة، خاصّة إذا تعلّق الأمر بالخيال الأدبي الذي يراهن على الإبداع والخلق والابتكار ويشغل الخيال أساساً كقوة تركيبية تتخذ في الإبداع الأدبي من اللغة وسيلة لها .

وقد كان للرومانسية دور كبير في تحرير الخيال المبدع عند الأدباء ومن الجذر اللغوي " خيل " اشتق الدارسون مصطلحات كثيرة تشير إلى أوجه متعددة لظاهرة الخيال، حيث يستخدم مصطلح التخيل - في الأغلب - لوصف المستوى المعرفي والفلسفي الذي يفعل الخيال، أي أنه مرتبط أكثر بالذهن، على الرغم من استخدامه في مجالات أخرى أكثر تخصيصاً، فالتخيل السردى على سبيل المثال متعلّق باستعمال أساليب معينة لإنتاج عوالم لا وجود لها في الواقع الحسي، في حين يوظّف مصطلح " المخيال " في سياق حضاري عام، مرتبط بثقافات بعينها، أما المتخيل فهو ثمرة عمل الخيال بواسطة اللغة ضمن عملية التّواصل الإبداعي، وهو يقع على المستوى الرّمزي.(13)

6- مصطلح المخيال:

مصطلح المخيال (L'Imaginaire) استعمل بنحو واسع في الثقافة الفرنسية للعلوم الاجتماعية والإنسانية. وذلك لأنّ مفردة المخيال (L'Imaginaire) قد ولدت أصلاً على أيدي عالم التحليل النفسي الفرنسي جاك لاكان (Jacques Lacan) (1901/1981) ، وقد استعملت الأنثروبولوجيا الفرنسية مفهوم المخيال الجماعي فعرفته على النحو الآتي: المخيال الجماعي هو مجموعة من المتماثلات (Représentations) الأسطورية للمجتمع (14)

فالمخيال هو الإطار الجماعي الذي يوجه ويحدد طبيعة مسيرة المجتمعات وحضاراتها، وهو روح الثقافة الشعبيّة وعن طريقه يتزوّد الفرد بثقافته الجماعية المختلفة عن ثقافة مجتمع عن آخر، حيث يؤدي دوراً مهماً في نقل الموروث الشعبيّ والحفاظ عليه ، ويسعى نحو ترسيخ بعض المعتقدات الشعبيّة التي تساعد على استمرار بعض السلوكيات التي ينتجها المجتمع ، وهذا يجعل الفرد يشعر بالانتماء إلى ثقافة مجموعة ما من منطلق نشأة ونمو الشعور الجمعي لديه، اتجاه ما يؤمن به من الأفكار.

ووفق منظور "جيلبر دوران" G.DURAND فإنّ المخيال يؤدي دوراً ذا أهمية بالغة في ربط العالم وأشياءه بالوعي العميق للأفراد والجماعات، لأنّ «الفضاء المخيالي هو الذي يعيد إنشاء وتأسيس أفق وتمنيات الكائن الإنساني ، في كلّ لحظة وحين، وبشكل حرّ وفوريّ. إن المخيال يظهر كملجأ أعلى للإنسان أو كقلب حيّ للروح.»(15)

ويرى أحد الدّارسين أنّ مصطلح المخيال قد اتّخذ في الثّقافة المعاصرة أهمية كبيرة وهذا ما منحه وظائف ومعاني يمكن إجمالها فيما يلي:

- 1- يمنح المخيال للذّات البشرية إمكانية نمذجة المواضيع بكيفية مغايرة لطبائعها الحقيقية.
- 2- يرتبط المخيال بطاقة ذهنية جموحة ولا حدّ لها كم أنّه منفتح على الأعماق الدّفينة للإنسان.
- 3- يتيح المخيال للذّات الإنسانية تمثّل الموضوع الواقعي مسبقاً ، وقبل أيّ التّقاء مباشر به.

4- ارتبط المخيال في الفكر المعاصر بالنقد والتفكيك الذي مورس من قبل العديد من الفلاسفة والمفكرين تجاه العقل.

5- أصبح المخيال في العالم المعاصر يلعب دورا كبيرا في تغذية الوعي الفردي والجماعي، كما أضحى يساهم بشكل فعال في تحريك التاريخ شأنه شأن باقي العوامل الأخرى، كالعامل الاقتصادي مثلا.

6- إنّ المخيال يجعل الإنسان يتصوّر الأشياء اللاواقعية والأسطورية، وكأنّها أكثر واقعية ومادية من الواقع الفعلي نفسه.

7- يتيح المخيال للأفكار والمواضيع إمكانية الدّيوّع والانتشار على نطاق واسع، أكثر مما تفعله الحقائق العقلية والعلمية.

8- إنّ المخيال يعبر عن أفكار وأحكام مسبقة، تسيطر على الذّهن بشكل قوي، وتجعله في صراع ومواجهة مع العالم.

9- ويجعل المخيال الفرد يطمح دوما لكي يقيم انسجاما بين ما يختزن في أعماقه في أعماقه من جهة، وبين ما هو موجود في الواقع الفعلي أو العالم الخارجي من جهة أخرى .

10- وقد مكّنت الدراسات المعاصرة المتعلقة بالمخيال، من إعادة الاعتبار للمناحي الأسطورية والرمزية التي تلعب الأنظمة الدّينية دورا كبيرا في الحفاظ عليها. «(16)

7- مستويات مقارنة المخيال:

أشار الدارسون إلى مستويين لمقاربة المخيال.

1.7- المخيال الجذري، (Imaginaire radical): وذلك على المستوى الفردي «فهو القدرة على على تصوّر الأشياء في غيابها أو تصوّر شيء غير مألوف أو خلق أشكال وصور. كل خلق هو عبارة عن بعث شيء غير معطى مسبقا وغير جاهز ويتجاوز التأليف بين الأشياء المعطاة وينشئ أشكالا فذة، تلك هي على سبيل المثال حالة النظريات العلمية ... فهو منبع التّخيلات والإرادة» (17) ولعلّ هذا هو مكمّن صعوبة الإمساك به لأنّه لا يتوقّف على ما في الأشياء من دلالات معهودة ومألوفة فهو متجدّد وعنه يصدر الآخر والمغاير.

2.7- المخيال الاجتماعي: يمثل المستوى الثّاني، وهو «ذلك المخيال المؤسّس للمجموعات والمجتمعات والحضارات، وهو يستند إلى المخيال الجذري للإنسان ولكنه لا يختزل فيه، ولا يمثل أيضا إضافات لجملة من المخيال الفردي. فهو ينبثق في مستوى آخر أكثر تعقيدا؛ أي في جموع تبدو ابتداء مجهولة الهوية ومجالها هو المجال التاريخي الاجتماعي، وبه تبرز المجتمعات والحضارات» (18) لأجل ذلك شهدت البشرية حضارات متنوّعة ومجتمعات مختلفة.

8- المخيال والعقل:

الواقع أنّه ليس سهلاً الوقوف على ضفاف الفروق الفاصلة بين العقل والمخيال فهما صنوان، ولا يمكن لنا الفصل بينهما وفَرَزُ ما هو راجع إلى "العقل الخالص" ممّا هو مخيالي: فـ» لقد أثبتت الدّراسات البيولوجية العصبية المعاصرة أن مراكز المنطق مرتبطة مباشرة بمراكز التّخيل والإرادة والإحساس. لذلك لا يستقيم الحديث عن العقل السّياسي، مثلاً، كنقيض للمخيال السّياسي أو عن معقول عقلي كنقيض للامعقول العقلي». (19) فلا يمكن، إذن، فصل العقل عن المخيال: «فهما وجهان للعملة نفسها. بيد أن الإنسان ينشئ الدّلالات المخيالية والرّموز، لكنّه يتوهّم أن هذه الدّلالات متعالية أو هي حصيلة قوانين موضوعية تاريخية؛ إنّّه ينشئ الدّلالات المخيالية ويحيلها إلى قوى خارجة عن إرادته، فيصبح أسيراً لها» (20) وفي تقدير أركون أنّ هناك تقابلاً بين الموقف العقلاني للعالم والموقف المخيالي، فيعتقد «أنّ المخيال هو بنية أنثروبولوجية موجودة لدى كلّ الأشخاص، وفي كلّ المجتمعات، مهما اختلفت أشكاله وأنواعه بحسب التّاريخية و المشروطة الرّمكانية» (21)

وفي هذا المضمار يذكر نور الدّين أفاية « أنّه بين العقلاني والمخيالي علاقة جدّ متشابكة : فهما في الوقت ذاته متلازمان ومستقلّان أو منفصلان. فالعقلاني يرمز إلى علاقة رصينة، حكيمة، تعتمد الاستدلال؛ أما المخيال فهو يحيل إلى مجال من العلامات والصّور والرّموز المتفرّقة والمتنوّعة والمتشعّبة. فالمخيال يجتث موضوعه من جذوره ويحرّف معناه ومدلوله الأصلي واللفظي وحقيقته الملموسة والمباشرة فيحيطه بهالة من الإبهام» (22).

9- كيف يتشكّل المخيال؟

يرى أحد الدّارسين أنّ المخيال يتشكّل تاريخياً في (23) الذاكرة أو في الدّهن، ويمكن استغلاله سياسياً وإيديولوجياً في اللّحظات العصبية، إنّّه يضرب بجذوره في أعماق اللاّوعي عبر تشكّله خلال مختلف المراحل التّاريخية. هكذا نتحدّث مثلاً، عن مخيال إسلامي ضدّ الغرب، أو مخيال غربي ضدّ الإسلام. فالمخيال هنا هو «عبارة عن شبكة من الصّور التي تستثار في أيّة لحظة بشكل لا واعي وكنوع من رد الفعل... بل يوجد مخيال كاثوليكي ضدّ البروتستانت أو بروتستنتي ضدّ الكاثوليك، أو شيعي ضدّ السّنة أو سنيّ ضدّ الشّيعية ... الخ، كلّ فئة تشكّل صورة محدّدة عن الفئة الأخرى وترسّخ هذه الصّورة بمرور الزّمن في الوعي الجماعي» (24) فالمخيال يضرب بجذوره في الأعماق، وينغرس في الذاكرة، فيتولّد شعور بانتماء مشترك له القدرة على تحريك العواطف وتجيشها في المنعطفات التّاريخية، ومن خلال الوسائط الكثيرة والمتنوّعة مثل الأسرة، والمدرسة وميادين العمل، والمؤسسات المختلفة.

10- دور الحكاية في تخصيص خيال الطّفل وتنمية قدراته

أولاً ما هي خصائص أدب الأطفال؟

لا مرأى في أنّ الأدب الموجه للأطفال يختلف عن ذلك الأدب الموجه للكبار وذلك راجع لاعتبارات عائدة في الأساس للمتلقين لكلا الأدبين ، فليس كل ما يوجه للكبار يفيد الصّغار، أو يواتي معارفهم وتجاربهم،

فأولى لأدب الطّفل أن يحمل رسالة نبيلة سامية مقارنة لمستوى متلقيه، لذا يحسن به أن يلتزم عدّة ضوابط نذكر منها:

- 1- أن يكون أدب الطّفل موافقا للفطرة السليمة والمنهج القويم، بعيدا عن الانحرافات العقدية التي تشوّش فكر المتلقي الصّغير وتدخّله في متاهات وصراعات داخل نفسه ووجدانه.
- 2- أن يكون التّعليم من أهدافه "فالتّعليم هو الوسيلة الأساسية التي يتمّ من خلالها تزويد الطّفل بالمعلومات التي تساعد على الإحاطة بمعارف العصر" (25)
- 3- أن يراعي المحيط الطّفولي المقدم له، والفئة العمرية المستهدفة، فالبينات تختلف عن بعضها من حيث الثقافات السائدة بها ومن حيث استجابتها للمتغيرات الثقافية المطروحة .
- 4- أن يسهم في تنمية الطفل نفسيا واجتماعي، ويتلمس حاجاته التربوية ويشبعها وتوسع رقعته الإيجابية لتغطي الجوانب المتكاملة لشخصية المتلقي الصغير.
- 5- أن يتوقّر أدب الطفل على عنصري الجاذبية والتشويق :حتى يقبل عليه الطفل ويتفاعل معه، وينجذب إليه.
- 6- أن يكون متوائما مع المراحل العمرية المقدم لها هذا الأدب حتى يتسلل إلى دواخلهم بسلاسة ومرونة ،ولا يجدوا دونه حاجزا.
- 7- من الضروري أن يسهم في إمداد الطفل بالقيم النبيلة، والسجايا الكريمة، الأخلاق الرفيعة، وأن يغرس بداخله مبادئ الخير والحق والجمال.
- 8- أن يثري قاموس الطفل اللغوي، ويوسّع مداركه اللغوية ، ويرفع درجة الذوق ودرجة الوعي التي تضمن توافقه النفسي والاجتماعي مع محيطه ، وتمنحه الثقة بنفسه وبمن حوله.
- 9- أمّا اللغة التي يقدم بها أدب الطفل فيشترط فيها السهولة وقرب التناول والابتعاد عن التعقيد والغموض واستعراض المهارات اللغوية المتعالية على عالم الطفل.
- 10- ولأنّ الطّفل سريع الملل، ويميل بطبعه إلى كل مختصر مفيد فإنّه يتوجّب تجنّب الإطالة المملة.
- 11- أن يسعى أدب الطفل بكافة أنواعه إلى الاهتمام بالشكل والمضمون على حد سواء، وألا يطغى أحد الجانبين على الآخر، ويجد فيه الطفل ما يشدّه للإقبال عليه بدافعية ذاتية .
- 12- الاهتمام بالعناوين الجذابة، والألوان المثيرة في القصة خاصة، مما يشجع على التفكير والربط والتحليل، والمتعة والتسلية التي ينشدها الطفل بطبيعته.
- 13- الاتصاف بالواقعية قدر المستطاع والابتعاد عن الإغراق في الخيال إلا بالقدر الذي يعين الطفل على تفعيل خياله.
- 14- الانتباه إلى ضرورة ابتعاد أدب الأطفال عن التخويف والترهيب حمايةً للطفل من الكدمات العاطفية والصدمات الانفعالية المؤثرة على السلوك والوجدان للصغير والذي لم تنضج بعد تجاربه الحياتية.
- 15- إرفاق القصص بالصور والألوان الجذابة للطفل، وبعض الطرق الحديثة في تحريك الأوراق ولفها: وبخاصة في الكتب التعليمية والمقدمة لأسرلب الطفل وتحبيبه وإلصاقه بالكتاب(26)

*دور نشاط التعبير في تخصيب خيال الطفل وتنمية قدراته وتنشيط مواهبه.

الطفولة عالم أثري شفاف، تتشكل مفرداته من البراءة والنقاء والبهجة والأحلام، ويحتاج الطفل دائما إلى التوعية والتوجيه والنصح والتعليم، وهو ما تضطلع به الأسرة والمؤسسات التربوية (27) ويبقى على الهيئات الأخرى من شعراء وكتاب ومبدعين أن يولوا اهتمامهم بهذه الشريحة، ويعملوا شأن رعاية الناشئة. قال الشاعر:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفَتِيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ أَبَوْهُ

والحكاية بوصفها جنسا أدبيا مشوقا، تحظى بقبول حسن لدى الطفل، فهي تخطف مشاعره، وتجلب اهتمامه، وتأسر قلبه، وتسلب عقله، بما يتوافر لها من تنوع وثناء، يطمح إلى إشباع حاجات الأطفال الوجدانية والفكرية، واستثارة خيالهم، وحفزهم إلى التفكير والابتكار، وتبصيرهم بتاريخهم المجيد..... وتحقيق المتعة والتسلية مع عدم إغفال المقاصد والغايات الوعظية والسلوكية والتعليمية.(28)

ونظرا للحساسية المفرطة الموجودة بين الطفل والحكاية وأجوائها التي تشحن وجدانه، فإنَّ الطفل يتحرك ممتطيا خياله الحاد كي يستطلع ما يحب، ومنظار حب الاستطلاع هذا آلية محفزة لركوب التجاوز عشقا للمغامرة، ولبوس ثوب البطولة....

خيال الطفولة ونشاط التعبير.

عمل أهل التربية والتعليم على استثارة الخيال لدى الأطفال، وأذكوا جذوته من خلال اللجوء إلى وسائل شتى، وهذا ما طمح إليه الأستاذ "عمرو الشيخ" حين اقترح على تلاميذه في الصف الأول الإعدادي في إحدى حصص الإنشاء أن يكتبوا في موضوع يستثير ملكاتهم الخيالية والإبداعية ومهد له بهذه العبارات: "أحيانا أشعر بالرغبة في التغيير...وأعيش لحظات في الخيال ...أسأل نفسي : ترى ... لو لم تكن إنسانا ...فماذا تتمنى أن تكون؟؟؟"

عرض الكاتب نماذج طموحة لمجموعة من التلاميذ والتلميذات الواعدين، ومنهم الكاتبة الصغيرة "ياسمين بدر الدين" التي تخيلت نفسها زهرة، فكتبت تقول: "في بعض الأوقات يذهب خيالي بعيدا، وأشعر برغبة في أن أكون زهرة في بستان أمتع كل من يراني أو ينظر إليّ فيجذني ذات لون رقيق، ورائحة جذابة تجذب كل من يمر بجاني من إنسان أو فراشة أو نحلة. وقد كنت وحيدة في البستان لا أرى (أحد) حتى جاءت فراشة، فتعرّفت عليها، وأصبحت صديقة لي، وكنا كل يوم نلتقي سويا. وفي يوم من الأيام جلست أبكي لأن عم أمين راعي البستان لم يروني منذ يومين، فقد كنت سوف أموت من شدة عطشي، فاشتكت لصديقي الفراشة، فحزنت حزنا شديدا ولكن لما جاء صاحب البستان ورآني هكذا سقاني بالماء ففرحت فرحا شديدا وقهرت عطشي، فهو رجل طيب، لقد أحببته كثيرا ولم أنس له هذا الموقف طول الحياة.

وفي يوم ثان جاءت نحلة وأصبحت صديقي هي الأخرى، فبذلك أصبحنا ثلاث صديقات مخلصات جميلات هي، الزهرة والفراشة والنحلة. وكان يأتي أناس إلى البستان، وكنت أنظر إليهم جميعا، ففي مرة رأيت زهرة في ملابس سيدة جميلة، فقلت في نفسي: ما أجمل حظ هذه الزهرة، ولكن بعد أن ناقشت هذا الموضوع مع الفراشة والنحلة، وجدت أن حياتي هنا أفضل: أرتوي بالماء، أجلب طعامي من التربة، أمدّ النحلة بالرحيق الطيب حتى تصنع منه العسل الذي فيه شفاء للناس. والفراشة تجد من تتنقل عليه من زهرة إلى زهرة، ولكن

بعد أن انتهيت من هذا الخيال الواسع ورجعت إلى حقيقتي، فكرت طويلاً حتى وصلت إلى ما أريده. لقد وجدت نفسي أفضل أن أكون إنساناً، لا زهرة، لأنّ لي (طموح كبير) أتمنى أن أحققه وأنجح فيه، كما أنّ لي أسرة وأقارب وأصدقاء أحبهم جميعاً، ولكن لا أنكر أنّ هذا الخيال جعل للزهرة مكانة كبيرة في نفسي وجعلني أتأمل في كلّ شيء من خلق الله وأدرك عظمة خلقه وجماله ونظامه، فما أعظمك أيها الخالق، وما أجمل الخيال". (29)

* النموذج لم يسرف في الخيال كثيراً، لكنّه شطح بصاحبته في أحلام يقظة لذيذة .

* النموذج ارتبط بالطبيعة وجال في أبهائها وصال في أجوائها بحسّ مرهف، وذوق رائع، وجمال أخاذ.

* ركز النموذج على الجوانب النفسية والأجواء العاطفية والأحاسيس الوجدانية (الحب والحنان والألفة.

* عمل على تنمية القيم الأخلاقية والإنسانية . الخ (مفاهيم الصداقة وحب الأهل، التحليّ بالسّخاء والرغبة في الكرم والعطاء).

* أكّدت المحاولة الأبعاد العقائدية الإيمانية الروحية (الإيمان بالقضاء والقدر، والرّضي بما قسم الله لنا، التمسك بالانتماء إلى الجنس الإنساني عن قناعة.

النموذج الثاني: (إيمان سمير) (الصّف الأول الإعدادي) تخيلت صاحبته نفسها عصفورة.

تقول " كنت أجلس مع نفسي وتخيلت وقتها أنّي عصفورة تطير عالياً...تحلّق في السّماء...تقف على سور...تغني أغنية جميلة بالألحان الرائعة. وعشت في هذا الخيال الجميل وحدي دون أن يزعجني أحد، وتخيلت نفسي واقفة على فرع شجرة أغني جميلة وفجأة جاء ولد صغير يرميني بالأحجار فطرت وأنا حزينة لأنني لم أفعل له أيّ شيء، وأسأل نفسي: لماذا فعل بي ذلك؟ ولكن لم أجد إجابة لسؤالي. وفي يوم من الأيام وقعت في يد إنسان لا يحب إلا نفسه، كنت أحاول أن أغني له ولكنه كان يعذبني أكثر. وفي يوم من الأيام كان باب القفص مفتوحاً، فانتهزت الفرصة وطرت عالياً في السماء...أطير حيث السعادة تملأ نفسي...شعرت في ذلك أني عدت إلى الحياة من جديد وبعد عدة أيام وقعت في يد إنسان يحب الخير. جلست أنا وهو نفكر كيف نقدم الخير للناس. وطلب مني أن أختار إمّا أن أذهب إلى حريتي أو أظلّ معه؟ اخترت الحرية، وذهبت لكي أطير عالياً. ولكن في يوم من الأيام عدت إليه ووجدته نائماً فغنيت له أغنية كان يحبها كثيراً، فاستيقظ ورآني ففرح كثيراً، وكنت أزوره كلّ يوم لأغني له...وفي النهاية استيقظت من حلمي الجميل، وسألت نفسي هل تريد أن تكوني إنسانة أم تريد أن تكوني عصفورة؟ واخترت أن أكون إنساناً لأنّ الله خلقني إنساناً". (30)

* بدا خيال الفتاة خصباً ثرياً مقترناً بالبهجة والمسرة والتّفاؤل والحبور والغناء، بغضّ النّظر عن المسألة اللّغوية، وسلامة النحو، والجوانب الفنيّة في حبكة المحاولة.

* طرقت المحاولة قضية القضايا في حياة الإنسان، فكرة الحرّية والتّحرر والانطلاق، وهذا شعور نبيل، وسلوك له رمزيته في حياة الفتاة، فربما دلّ أسلوبها على حياة ضيق ومعيشة ضنك.

* استثمرت الفتاة في المحاولة عنصر الزّمن فاهتمت بالطّبيعة والتّجوال والتّحليق عالياً، بدليل تكرار العبارة.

* عمل النموذج بمبادئ رومانسية (حب الخير والجمال والحق) والمشاعر المفعمة بالمفاهيم الإنسانية.

*وقف النموذج وقفة إدانة تجاه مفاهيم العنف والعدوان والظلم والإيذاء، وانتصر لمفاهيم النبل والفضيلة واستقامة الأخلاق.

*كذلك آمن النموذج بالقضاء والقدر، وأكد وعي الصغار وإدراكهم لمصائرهم التي لا بديل عنها بتلك الأدوار التي لعبوها مؤقتا، على الرغم من روعتها وحلاوتها.

النموذج الثالث: الكاتب الصغير خالد ضاحي. (تخيل أنه صار قلمًا).

يقول "تخيلت نفسي قلمًا... قلمًا (عادي) في جيب شخص لا يستفيد بي فقررت أن أرحل من جيبه إلى جيب شخص آخر، فانتهزت فرصة ركوبه (مواصلًا) مزدحمة، فانتقلت من جيبه إلى جيب آخر يقدرني ويفهم قيمتي، ولا يضعه في جيبه لينظر الناس إليه فحسب، بل يكتب بي كلامًا مفيدًا ينفع المجتمع، فعرفت أنه أديب لكن لم يدم فرحي طويلًا لأن الأديب أهداه لأحد أقاربه الصغار وهو تلميذ خطه لا يعجب المدرسين فحزنت وانتهى خيالي". (31)

*يبدو النموذج مميزًا مفعما بالطرافة بالفكاهة وخفة الروح والمرح.

* لجأ النموذج إلى حيلة تنويع الأدوار والانتقال بين الشخصيات، حيث أضفى ديناميكية وحركة على المشاهد.

*يوصف النموذج بالعبقريّة في تقمص عدّة أدوار بحثًا عن التّغيير، من جهة ومن جهة أخرى بحثًا عن أدوار إيجابية تجلب النّفع وتقدّم الخدمة للصّالح العام.

*أفلح النموذج في الكشف عن أنماط بشرية مصنّفة في الطّراز الرفيع ضمن المجتمع (الأدباء) وأنماط أخرى مزيفة تتوسّل القلم بريستيجا مضللًا كاذبًا، وهو سلوك مزيف لا يخفى حتّى على الأطفال، لذلك فضح الطفل العبقري زيف المزيّفين وأنصف مستوى الإيجابيين.

*أملّى الخيال على صاحبه القيم الجمالية والوظائف الإيجابية. (أحبّ الأدب واشمأز من الخطّ الرّديء).

خاتمة:

عموما يتجلّى نشاط التّعبير ومن خلال ما تقدم أنّه وسيلة وغاية في الآن ذاته، وهو من الطفل وإليه معًا، فالخيال طاقة منتجة للحكاية عن طريق التعبير الذي هو اللّغة، وهي بدورها مادته وحاضنة تخصيبه، وباعثة استمراره واستثماره «ولا شكّ أنّ هذا الخيال يعكس رغبة في تغيير المجتمع إلى الأفضل، ويعبّر عن تطلع الصّغار إلى الحياة في عالم يسوده الرّخاء والتّقدّم» (32)

وبغض النّظر عن مستوى اللّغة الواصفة التي توسّلها التّلاميذ في تعابيرهم، لوصف مشاعرهم، والتي لا ترقى إلى مصاف اللّغة الإبداعية، فإنّ مجال الوصف كان واضحًا يفي بغرض التّفاعل الحاصل في سلوكات الأطفال المتخيلين ويكشف بصدق براءتهم في أداء أدوارهم المنوطة بهم بتمثّل جادّ وواع أثناء تقمص كلّ واحد لنوع الشّخصية التي رغب في تخيل نفسه فيها، دون التّماهي والانتهاه فيها، لأنّ القارى سرعان ما يلاحظ معاودة الأطفال رجوعهم لشخصياتهم الحقيقية.

والمحاولات كلها في الواقع تتوقّف في شكلها ومضمونها على ما يضمن:

- 1 - شبه متن حكائي: فالمادة الأولية التي تتمثل في جملة الأحداث التي كانت متخيّلة وفق ما يمليه الانتماء إلى الواقع معروف القيم ، هي مادة خضعت لمنطق السبب والنتيجة في ترتيب أحداثها وأزمنتها.
- 2 - شبه مبنى حكائي: وفّر في الحكاية المروية عناصر مكونة متمثلة في الأركان الأساسية التي لا يبني الحكّي إلا بها، وهي: الزاوي-المروي- المروي له /المرسل- الرسالة- المرسل إليه. وهي: الأحداث- الشخصيات – الزمان- المكان، تتحكم في ترتيبها مخيلة صاحب المحاولة.
- الهوامش:

- (1) ينظر. محمد الشبة. مفهوم المخيال عند محمد أركون، مكتبة الفكر الجديد دار الأمان. الرباط. 23 فيفري 2017 ص: 19 .
- (2) ابن منظور – لسان العرب المحيط – قدم الشيخ عبد الله العلال ج3- دار الخيل العرب – بيروت - 1989 – ص: 930
- (3) المصدر نفسه. ص: 932.
- (4) يوسف سامي اليوسف – الخيال و الحرية (مساهمة في نظرية الأدب) – دار كنعان – ط2 – دمشق - 2003 – ص: 07
- (5) سعيد جبار، من السردية إلى التخيلية (بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي)، دار الأمان، ط1، الرباط- 2013 - ص: 50
- (6) أنظر. المصطفى مويقن. بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة. دار الحوار للنشر والتوزيع ط1 سوريا - 2005 مثل المتخيل السردى، والفلسفي. ص: 89
- (7) يوسف سامي اليوسف، الخيال و الحرية (مساهمة في نظرية الأدب) ص: 23
- (8) سعيد جبار، من السردية التخيلية (بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي). ص: 48
- (9) آمنة بلعل، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف. ص: 20
- (10) المصطفى مويقن، بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة، ص: 81
- (11) آمنة بلعل. المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف. ص: 18
- (12) حسين خمري مقاربات في الرواية، فضاء المتخيل. منشورات الاختلاف منشورات (2002) ط1 ص 43.
- (13) ينظر آمنة بلعل. المتخيل في الرواية الجزائرية، ص: 18
- (14) عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع. المكتب الجامعي الحديث، الأناضول، الإسكندرية. الطبعة الثالثة، مارس 1998. ص: 199 .
- (15) محمد الشبة. مفهوم المخيال عند محمد أركون. ص: 20. عن نقلا. Durand.G.Ibid.p.500
- (16) ينظر محمد الشبة. مفهوم المخيال عند محمد أركون مقاربة فكرية. دار الأمان. الرباط. الطبعة الأولى 2014. ص: 22. ص: 23.
- (17) محمد خالد الشيباب. المخيال والوعي الأسطوري . التاريخي في فكر محمد أركون، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية. المجلد 3 العدد 1، 2010، ص: 58
- (18) محمد خالد الشيباب. م.ن، ص.ن
- (19) محمد خالد الشيباب. م.ن، ص.ن
- (20) المرجع نفسه، ص.ن: 20
- (21) أركون محمد، الفكر لإسلامي، نقلا عن محمد الشيباب. مفهوم المخيال عند محمد أركون مقاربة فكرية، ص: 32 قراءة علمية. ترجمة هاشم صالح. مركز الإنماء القومي. بيروت بيروت 1987 ص: 243
- (22) Nouredine Afaya, *L'Occident dans l'imaginaire arabo-musulman*, Éditions Toubkal, 1997. p. 112.
- (23) محمد خالد الشيباب . المخيال والوعي الأسطوري . التاريخي في فكر محمد أركون، ص: 58
- (24) نقلا عن محمد خالد الشيباب . المخيال والوعي الأسطوري . التاريخي في فكر محمد أركون. ص: 5

-
- (25) الخطيب ، محمد شحات ، الطفولة في التنظيمات الدولية والإقليمية والمحلية ، ط 2 ، الرياض، 1426هـ، ص:11.
- (26) ينظر: نجيب أحمد ، أدب الأطفال علم وفن، ص:27، 28.
- (27) فوزي عيسى. أدب الأطفال: الشعر، مسرح الأطفال، القصة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية. مصر. ط. 2002. ص:11.
- (28) المرجع نفسه. ص: 287.
- (29) ينظر فوزي عيسى. أدب الأطفال. الشعر – مسرح الطفل – القصة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. الطبعة الأولى 2007. ص: 349.350
- (30) فوزي عيسى. أدب الأطفال. الشعر – مسرح الطفل – القصة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. الطبعة الأولى 2007. ص: 351.
- (31) فوزي عيسى. أدب الأطفال. الشعر – مسرح الطفل – القصة. ص: 352.
- (32) فوزي عيسى. أدب الأطفال. ص: 355.